المحاضرة الثالثة / مادة دراسات في النقد الأدبي القديم / فرع الأدب / ماجستير

اعداد : أ . م . د . مرتضى عبد النبي الشاوي

المحور الثاني : النقد البلاغي (البلاغة علما) :

أ-النقد البلاغي المعتمد على الركنين الأساسيين : ١- الفصاحة ٢- المطابقة

ب-النقد البلاغي من خلال أركان عمود الشعر العربي

ج-النقد البلاغي من خلال الفنون البيانية

الأصل في النقد أن يبدأ من حيث انتهت البلاغة فإن كانت البلاغة فناً ودستوراً جمالياً فالنقد حكيم إذ البلاغة كما لوحظ تهتم بالطريقة الصحيحة لتي تكسب العمل الأدبي الحسن والجودة .

أما النقد فيهتم بالحكم على هذه الطريقة ومدى تحقق نسبة الجودة فيها من دون أن يغيب عن البال .

فالبلاغة العربية فنون جمالية وأساليب بيانية وما النقد إلا ضبط وتقدير لهذه الفنون والأساليب .

وان القيم الجمالية في النص الشعري مثلا لا يستطيع أن يضبطها أو يعرف مستوها إلا الخبير المتمرس بها ، والناقد يجب أن يمتلك إحساسا يميز به الجميل من القبيح هو ما يسمى (الذوق الفني) أو (الذوق الجمالي) وهو قدرة الانسان على التمييز بين الجميل والقبيح بالحواس والعقل وهذه القدرة كم ذكر لا تتأتى إلا بالخبرة والمران والثقافة ومعرفة مواطن الجمال والقبح .

ومن أجل ذلك سوف عند محاور الموضوع لمعرفة طبيعة النقد البلاغي من حيث الأبعاد الثلاثة .

فالنقد البلاغي المعتمد على الركنين الأساسيين : ١- الفصاحة ٢- المطابقة

يقودنا الى وقفة عند مفهومي الفصاحة والمطابقة فالفصاحة هي الأرضية التي تنطلق منها البلاغة لأنها تعني البيان والظهور وهناك شروط تتم بها فصاحة الكلمة والكلام .

فلا يهمنا التفاصيل بقدر ما يهمنا البحث عن أسس التنقيح والمعاودة في الشعر فتتم فصاحة الكلمة بسلامتها من تنافر الحروف والغرابة والايهام ومخالفة القياس والوضع اللغوي والألفاظ العامية والمبتذلة .

وتتم فصاحة الكلام بعد فصاحة مفرداته بسلامته من ضعف التأليف الذي هو خروج على قواعد اللغة وتنافر الألفاظ والتعقيد اللفظي والمعنوي .

والخروج على قواعد اللغة وتنافر الالفاظ والتعقيد اللفظي والمعنوي هو مخالفة لشروط البلاغة .

فليس كل كلام فصيح بليغاً ولكن كل كلام بليغ فصيح .

وقد تحدث النقاد القدماء أمثال قدامة بن جعفر مؤكدا ما يجب على الكلام أن يكون على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن الى تأخير ما يجب تقديمه ولا الى تقديم ما يجب تأخيره ...

وكذلك ما أشار إليه ابن سنان حول (حسن التأليف) وقصد به وضع الألفاظ موضعها حقيقة ومجازا لا ينكره الاستعمال ولا يبعد فيه وغير ذلك .

وأكثر ما يقع فيه الشعراء من التعقيد هو التقديم والتأخير الذي يضطر إليه الشاعر لحشد الأفكار التي في ذهنه وترتيبها بألفاظ يضيق عنها البيت لخضوعه لوزن معين وقافية معينة .

ومن ذلك التعقيد اللفظي قول الفرزدق في مدح ابراهيم بن هشام المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان :

وما مثله في الناس إلا مملكا أو أمه حيّ أبوه يقاربه

فأنت ترى فصاحة كلمات البيت مفردة ولكن رصفها بهذا الشكل افقد البيت فصاحته إذ وعر الشاعر الطريق الى السامع فأسلمه الى التعقيد الذي حال دون الوصول الى قصد الشاعر وقصد الشاعر :

وما مثله أي مثل الممدوح في الناس حي يقاربه أي يشبهه في الفضائل إلا مملكا يعني : هشام بن عبد الملك أبو أمه ، يعني أبا أم هشام ، أبوه : أبوه : أي أبو الممدوح ، وغير ذلك

وهناك ايضا يدخل ما يعرف بالمعاظلة التي ذكرها الآمدي وهي شدة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض وأن يدخل لفظة تشبهها أو تجانسها وإن أخل بالمعنى بعض الإخلال ورأى أن أبا تمام كان يكثر من ذلك ومنه قوله :

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد

فما أكثر تشبث بعض ألفاظ هذا البيت ببعض ، وما أقبح ما اعتمده من أدخال ألفاظ في البيت من أجل ما يشبهها وهي قوله (خان وخان ويتخون) وقوله : (أخ وأخا) وقد أراد بهذا البيت : (خان الصفاء أخ خان الزمان أخا من أجله فلم يتخون جسمه)

وهكذا يصبح التعقيد مخلاً بفصاحة الكلام بشرط أن لا يتسع الكلام بالمباشرة والتقريرية والوضوح الى درجة الابتعاد عن عن الخيال والتأمل الذي يقلل من جمال التعبير وقوة التأثير فالتحليق بالخيال يضفي من ظلال وايحاء وما عد ذلك يسقط في التعقيد والتعمية .

البلاغة كما قال القزويني هي (مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته)

والمطابقة لمقتضى الحال (الملائمة بين الأسلوب الذي يستعمله المتكلم في كلامه والموقف الذي يقال فيه الكلام) ، أي كما قيل (لكل مقال مقال)

والعلم الذي يبحث في سبيل هذه المطابقة الفصيحة هو علم البلاغة .

البلاغة كما أشار إليها الدراسون فن وعلم .

فمن حيث أنها فن فهي الملكة التي يقتدر بها على مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .

والبلاغة من الأسس التي اعتمدت في تنقيح الشعر فهي بوصفها علما وهي بهذا المفهوم العلم الذي يدرس كيفية هذه المطابقة ويهدى إليها .

اذن البلاغة أداة من أدوات النقد الأدبي وواحدة من وسائله حيث أنها تعطي القواعد والقوانين التي يتحقق برعايتها جمال الكلام ودقته وهكذا يمكن أن نلاحظ ارتباط البلاغة بالنقد الأدبي فهي علم من علوم اللغة وبها وبالنقد يقاس الأدب ويبين حسنه من رديئه وجميله من قبيحه .

وهي ايضا روح الأدب والأدب مادتها تعلم صنعه وتبصر بنقده

ويشير المتقدمون الى تسمية البلاغة وتوابعها بعلم (نقد الشعر) و (صنعة الشعر) و (نقد الكلام) وبذلك يمكن أن نعتمدها أساسا من أسس معاودة الشعر وتنقيحه .

فالبلاغة تشمل على قوانين وقواعد يعتمدها الدارس والناقد في نظره للنص الأدبي وتقويمه .

فقد عاش النقد والبلاغة مختلطين منذ أقدم عصورهما لاتفاقهما في الغرض وهو تحقيق القوة والصدق والجمال في الأداء والتعبير وهذه الأمور من صميم ما تهدف إليه عملية تنقيح النص الأدبي وتقويمه .

وكما برزت آثار النحويين واللغويين في بواعث نشوء النقد الأدبي عند العرب برزت آثار البلاغيين فكان لآرائهم ثمرات من الأحكام الذوقية التي تساندها المعرفة بطبيعة الفن الشعري .

وقد أكد الدارسون القدماء دور الذوق السليم في اصدار الأحكام البلاغية .

وقد ذكرنا سابقا مطابقة الكلام لمقتضى الحال هو ما تسعى إليه البلاغة من أجله ثم هذه المطابقة تتطلب الدقة المتناهية في استعمال الكلمات التي تكون شديدة الابانة عما يريد الشاعر .

فقد روي أن طرفة بن العبد سمع قول المسيب بن علي :

وقد أتناسى الهم عند إدكاره بناج عليه الصيعرية مكدمِ

فقال (استنوق الجمل) وهذا كما قيل من عدم الدقة في استعمال الألفاظ التذي تحرص البلاغة على تجنبه .

ومما أخذ على الشعراء أن يباعد الشاعر بين الأشياء التي يجب أن يشاكل بعضا وهو ما يعرف في علم البلاغة بـ (مراعاة النظير) ومن ذلك ما أنكر على الشاعر في قوله :

ما لك ، فاعلمن ، فيها مقام إذا استكملت آجالا ورزقا

وموضع الإنكار ههنا أنه قال : آجالا ورزقا ، كان ينبغي أن يقول : أرزاقا أو أن يقول : أجلا ورزقا ، وقد زاده انكارا أن جمع الأجل ، والإنسان ليس له إلا أجل واحد ، ولو قال أجلا وأرزاقا لما عيب لأن الاجل وحد والأرزاق كثيرة لاختلاف ضروبها وأجناسها .

ومما عيب على الشعراء من الناحية البلاغية ما كان يخص التقديم والتأخير فمما أفسد ترتيب ألفاظه قول بعضهم :

يضحك منها كل عضو عضو لها من بهجة العيش وحسن القوامْ

ترفل في الدار لها وفرة كوفرة الملط الخليع الغلامْ

كان ينبغي أن يقول كوفرة العلام الملط الخليع أو الغلام الخليع الملط فأما تقيم الصفة على الموصوف فرديء في صنعة الكلام جدا .

ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

وعجلة تشدو بألحانها وكانت الكيّسة الخادمهْ

لو قال (وكانت الخادمة الكيسة) لكان أود

أما ما يخص الصور البيانية تلك المؤاخذ التي أخذت على الشعراء فمثلا في التشبيه الذي يعد من أقدم صور البيان ووسائل الخيال وأقربها الى الفهم والأذهان وقد اهتم به النقاد .

فمثلا من أركان عمود الشعر العربي ما اعتبر من أحسن التشبيه ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات اي ملائمة المشبه للمشبه به .

ومما أخذ على لبيد من رديء التشبيه :

فمتى ينقع صراخ صادق يحلبوه ذات جرس وزجل

فخمة ذفراء ترتى بالعُرى قردمانيّاً وتركاً كالبصل

القردماني : الدرع والترك : البيض

فشبه البيضة بالبصل وهو بعيد وان كانا يتشابهان من جهة الاستدارة لبعد ما بينهما في الجنس .

وعابوا أبا تمام ببعض تشبيهاته لأنه لم يكن يأخذ بالأدنى فالأعلى بل بالعكس فقد كان ينحدر من أعلى إلى أسفل كقوله :

خلق كالمدام أو كرضاب المـ سك أو كالعبير أو كالملاب

فقالوا إن الناس يقعون من الدون الى الأعلى وهذا من الأعلى إلى الدون وجعل خلقه كالمدام أو المسك ثم قال أو كالعبير أو الملاب .

ومن الصور البيانية التي في عمود الشعر مناسبة المستعار للمستعار له كما في قول أبي تمام الذي أخذ عليه :

يوم أفاض جوى أغاض تعرياً خاض الهوى بحري حجاه المزبد

فجعل الحجى في هذا البيت مزبدا فالعقل عند الشعراء يزيد ولا يكون مزبدا فلو جعل المزبد نعتا للبحرين قال المزبدين .

فالعرب وضعت شروطا للاستعارة منها : المقاربة والمناسبة والمشابهة والسببية ولن تكون الاستعارة لائقة إذا خرجت عن عن هذه الشروط عليها .

فقد عاب النقاد استعارات أبي تمام وعد البعض من قبيح الاستعارات في قوله :

يا دهر قوّم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فقد جعل للدهر أخدعين وقبح الأخدع لما جاء به مستعارا للدهر ولو جاء في غير الموضع أو أتى به حقيقة ووضعه موضعه ما قبح نحو قول البحتري :

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فقال الآمدي : فأي ضرورة دعت أبا تمام إلى الأخدعين وقد كان يمكنه أن يقول (من إعوجاجك) أو (قوم معوج صنعك) أو (يا دهر أحسن بنا الصنيع) لأن الأخرق هو الذي لا يحسن العمل .

وكما أخذت الملاحظات على الشعراء في علمي المعاني والبيان كذلك رصدت في علم البديع بعدم الايفاء باستعمال الالوان البديعية على وجهها الأكمل .

فمن ذلك سوء المقابلة في قول أمريء القيس :

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

ليس (سوية) بموافق (لتساقط) ولهذا غيره أهل المعرفة جعلوه (جميعه) لأنه بمقابلة (تساقط) أليق .

فضلا عن ذلك ما أخذ في مجال موسيقى الشعر كونه من عمود الشعر العربي ما روي أن النابغة كان في شعره إقواء والإقواء عيب موسيقى في الشعر كما في قوله :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وقد تنبه النابغة الى ذلك بعد أن طلب الى جارية أن تغني هذين البيتين فغير عروضه وجعله (وبذاك تنعى بالغراب الأسود) .

أما النقد البلاغي من خلال الفنون البيانية فقد يشمل كالآتي :

١-التشبيه : وهو من أكثر فنون البلاغة العربية وروداً في النصوص النقدية ، ولعل ذلك لكثرة مزاياه الجمالية من حيث المبالغة والايجاز والإيضاح .

فمن أول النصوص النقدية التي اعتدمت التشبيه معيارا نقديا في الحكم النقدي ما ورد في طبقات فحول الشعراء عن أمريء القيس أن (كان أحسن أهل طبقته تشبيهاً) والمعيار المحكمّ هنا هو التشبيه .

ومن هذه النصوص أيضا ما يرويه ابن سلام ((واستحسن الناس من تشبيه أمريء القيس :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والخشف البالي

وكذلك ان قتيبة قد اعتمد التشبيه المبدأ الجمالي نفسه ومن ذلك :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وكانت اهمية التشبيه ايضا ابن طباطبا في (عيار الشعر) وقدامة بن جعفر في (نقد الشعر) كذلك كما فعل الآمدي في الموازنة في المقارنة بين أبي تمام والبحتري .

٢-الاستعارة :

وهي فن تعبيري بلاغي وهيئة جمالية يصدر بها المعنى ، وتظهر أهمية الاستعارة من كونها تنقل من مستوى تعبيري عادي إلى مستوى فني عال تعجز عن إدراكه أو الوصول إليه .

ولما كانت الاستعارة فناً جمالياً عريقاً كان من الطبيعي أن يعتمد النقاد العرب القدماء عليها فيقيسوا بها الأشعار الجيدة من الرديئة فالأمدي يتخذها معيارا نقديا أساسياً في موازنته ويفرد لها بابا كاملا بعنوان (ما في شعر أبي تمام من قبيح الاستعارات)

فمثلاً ((من رديء استعاراته وقبيحها وفاسدها قوله :

لم تسق الهوى ماء أقل من الردى من ماء قافية يسقيكه فهم

فقد جعل للقافية ماء على سبيل الاستعارة فلو أراد الرونق لصلح ولكنه قال (يسقيكه) ففسد معنى الرونق لأنك إذا قلت : هذا ثوب له ماء أو لفظ له ماء لم تجعل الماء مشروبا على الاستعارة فتقول : ما شربت ماء أعذب من ماء ثوب شربته عند فلان ورأته على فلان وكذلك لا تقول : ما شربت أعذب من ماء (قفا نبك) لأنّ للاستعارة حداً تصلح به فإذا تجاوزته فسد وقبحت))

٣-الكناية :

فن جمالي يعتمد هيئة غير مباشرة في ايصال دلالة المعنى فلا يستعمل اللفظ الخاص بالموضوع له في اللغة بل يؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى فيستدل بذلك التابع على المتبوع .

فالكناية مبنية على تفخيم المعنى والمبالغة في تصويره ومن أمثلة هذه الهيئة الجمالية قول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفلٍ أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فقد اشار ابن سنان في سر الفصاحة بقوله : ((أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق فلو عبّر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال : طويلة العنق فعدل عن ذلك وأتى بلفظ يدل عليه وليس هو

الموضوع فقال بعيدة مهوى القرط فدلّ ببعد مهوى قرطها على طول الجيد وكل في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله : طويلة العنق))

وقد أجمع علماء البلاغة على أن الكناية أبلغ من التصريح لأن قيمتها الجمالية ليس في معناها الذي تحمله ولكن في طريق اثباتها له وتقريرها اياه فليست الغاية زيادة المعنى بل زيادة اثباته فهي أبلغ وآكد .